الفصل العشرون

نجم المباراة

الثاني والعشرون من شباط عام 2006م

الجوّ بارد جدًّا في لندن التي ستقام فيها مباراة الذهاب لربع نهائي دوري الأبطال على ملعب ستامفورد بريدج. لقد كانت أرضية الملعب موحلة؛ ما أثار الكثير من الجدل في الصحافة. فالأجواء مشحونة جدًّا، وإنجليزية بامتياز.

يجمع اللقاء فريقيْنِ على طرفي نقيض، هما: تشيلسي بأسلوبه العقلاني الدفاعي الذي يمتاز بالقوة والاندفاع، ويُعَدّ أكثر الفرق إقناعًا في أوروبا. وبرشلونة؛ الفريق ذو المواهب المتعدِّدة، المبدع، الذي يتميَّز بلمسة استعراضية.

يقدِّم البارسا نموذجًا جذّابًا لكرة القدم، لكنّه يكون أحيانًا هشًّا سهل الانكسار. يتصدَّر كلا الفريقيْنِ الدوري، كلّ في بلده، وقد قدَّما أداءً مبهِرًا في نهاية عام 2005م.

يبدأ العام المقبل بالوتيرة نفسها، لكنّ تشيلسي يقع في المحظور؛ إذ تتلقّى شباكه ثلاثة أهداف على ميدان نادي مدلزبرو في أثناء بطولة الدوري، ويفاجَأ بإقصائه من كأس الاتحاد الإنجليزي على يد كولشيستر المغمور. وفي المقابل، فقد عانى البارسا في الآونة الأخيرة غياب إيتو الذي يشارك منتخب بلاده في

بطولـة كأس الأمم الإفريقية، فضلًا عـن الإصابة التي تعرّضـ لها تشافي؛ إذ أفضـى ذلك كلّه إلى إقصائهم من بطولـة كأس الملك على يد ريال سرقسطة، وأدّى غيـاب رونالدينو إلى خسـارة الفريق مباراتين في الـدوري. تُعَدّ الهزيمة أمام فالنسيا أمرًا قاسيًا؛ نظرًا إلى قرب ترتيب هذا الأخير من البارسا، وذلك قلَّص فارق النقاط إلى ست.

لنـدع الظروف المحيطـة جانبًا، فنحـن بصدد الحديث عن مبـاراة تَعِدُ بالكثيـر من المفاجآت المثيرة للاهتمام؛ فنجد فيها تنافسًا ثنائيًّا بين صاحب الكرة الذهبية رونالدينو، ووصيفه فرانك لامبارد، وبين أفضل لاعب في إفريقيا إيتو، ووصيفه دروغبا. ولا ننسى المنافسة الثنائية بين المدرِّبَيْنِ؛ إذ لدينا على الطـرف الأول جوزيه مورينيو، ذو الشخصيـة العاطفية الهستيرية، يقابله على الطرف الثاني ريكارد، الهادئ المتزن، إنّهما شخصيتان على النقيض تمامًا.

هنـاك أيضًا موضـوع الثأر الحاضـر دائمًا في كرة القـدم؛ فالكلّ ما زال يذكـر الهزيمـة والأهداف الثلاثة التـي سجّلها البلوز في غضـون التسع عشرة دقيقـة فـي مرمى البلاوغرانـا، في الثامن مـن شهر آذار عـام 2005م، خلال مبـاراة العودة لدور الستـة عشر من دوري الأبطال. وكانـت مباراة الذهاب قد انتهت بتقدُّم طفيف للبارسا بنتيجة (2-1) على ملعبه، لكنّه أصبح يلهث – من دون جدوى- وراء التعادل بعد ارتكاب بعض لاعبيه عددًا من الأخطاء الدفاعية التي برَّرها ريكارد لاحقًا بقلّة الخبرة وغياب التركيز.

وعلى الرغم من المجهود الذي بذله رونالدينيو، وشلال الفرص الضائعة، فإنّ فريق البارسا ذاك، الذي كان يَعُدّ نفسه فريق الأحلام الجديد في النادي، اضطر إلى رؤية منظر مورينيو الذي اندفع إلى أرض الملعب بعد إطلاق صافرة النهايـة، وبدأ بتوزيع القبـلات في الهواء على أنصاره. وقـد رافق ذلك تعرّض

بعض اللاعبينَ للإهانة، فضلًا عن التدافع والمشاحنات بين اللاعبينَ ورجال الأمن، وهي أمور تورَّط فيها الجميع، حتى المدرِّب الهولندي.

كانت رحلة العودة إلى الديار مريرة، وقد حُلِّلت الأخطاء مرارًا وتكرارًا، واتُّهِم حكم اللقاء بيير لويجي كولينا (من الصحافة الإسبانية) بالتغاضي عن ركلات جزاء، فضلًا عن عدم مشاهدته اعتداء كارفاليو على فالديز الذي أدى إلى تسجيل جون تيري هدفًا، لتصبح النتيجة (2-4) لصالح تشيلسي؛ أي إنّه اتُّهِم بمحاباة النادي اللندني.

من المعروف أنّ التاريخ يكون حاضرًا في مناسبات مثل هذه. ويطلق العنان لكثير من العناوين على صفحات الجرائد الرياضية جميعها، ويُوجِد ما يشبه مسلسلًا تلفزيونيًّا دراميًّا يُدعى «الانتقام».

يزداد التوتر بين اللاعبينَ الذين ينزلون إلى أرضية الملعب الساعة 8:45 مساء. ثمّ تُعلَن تشكيلة الفريقَيْنِ؛ يغيب دروغبا عن التشكيلة الأساسية لتشيلسي، ويسدّ مكانه في الهجوم هرنان كريسبو، في حين تتأكّد مشاركة آسيير ديل أورنو وكلود ماكيليلي في الخط الخلفي. بينما ينضم تياغو موتا إلى أدميلسون في خط وسط البارسا. يجلس أندرياس انيستا على مقاعد البدلاء، مع أنّه لعب ضمن التشكيلة الأساسية في الآونة الأخيرة. بعد قليل، يدخل ليو ميسي الملعب، بقميصه الأصفر البرّاق الذي يحمل الرقم (30)، ويبدو حينئذٍ - بالنسبة إلى الكثيرينَ- مجرّد صبي كبير. كيف سيتعامل مع هذا النوع من التوتر الذي يُعَدّ شديد الوقْع حتى على بعض اللاعبينَ المخضرمينَ؟ يبدو أنّه لا يشعر بالضغط أو الانفعال. هل ذلك ناتج من نقص في الانضباط لدى هذا اللاعب الشاب؟ أو أنّه - ببساطة - لا يخشى تلك الأجواء؟

تأتي الإجابة في الدقيقة الثالثة، عندما يُسدِّد الأرجنتيني تسديدته الأولى على مرمى بيتر تشيك، ويتصدّى لها هذا الأخير بسهولة. لا شكّ في أنّ ليو ليس خائفًا. وهو يُثبِت ذلك باستمرار في الدقائق التي تلي حين يجري في كلّ موضع متاح مثل فأر صغير. إنّه يوجد في كلّ مكان، يحاول اختطاف الكرة، ويُمرِّر بدقة، ويعمل مع زملائه جيدًا، ويحقق أول فرصة حقيقية، ويزرع بذور الخوف في دفاعات تشيلسي. ثمّ نراه يُشكِّل كابوسًا لديل أورنو، الذي يقوم بدوره بعرقلة ليو في الدقيقة الحادية والثلاثين، تاركًا علامة على الجورب الأيمن لهذا الأخير. لكنّ البرغوث لا يُحذِّر أو يعترض. يستمر اللعب. ولكن، بعد ست دقائق، يؤدي تدخُّل عنيف من المدافع الباسكي إلى تلقّيه بطاقة حمراء، تاركًا تشيلسي تُكمِل المباراة بعشرة لاعبينَ. ما الذي يحدث؟ يسيطر ميسي على الكرة في منتصف ملعب الخصم، ويحافظ عليها على الرغم من التدخُّل القوي والصراع (كتفًا لكتف) مع روبن، وينجح هذا الأخير في انتزاع الكرة، لكنّ اللاعب الصغير لا يستسلم. فيُلاحِق روبن إلى حدود الملعب، ويحاول التغلُّب عليه من الجهات كلّها. وفي نهاية المطاف، يُفجِّر قدرًا غير متوقّع من الطاقة، ويحصل على الكرة قرب الراية الركنية. روبن أمامه الآن، لكنّ ليو ينجح في إمرار الكرة من بين قدميه، وعندها يصدمه القطار.

يشرح اللاعب الأرجنتيني لاحقًا ما حدث بقوله: «لقد شاهدت المدافع متجهًا نحوي بسرعة وإصرار، فحاولت أن أقفز مبتعدًا عنه، لكنّني لم أنجح». يسقط صاحب القميص الأصفر على الأرض بصحبة ديل أورنو، فيتحلّق بقية اللاعبينَ حولهما متسبِّبين في جلبة. وفي هذه الأثناء، يدخل روبن وغوديونسن في جدال مع الحكم المساعد. يحدث احتكاك بين ديكو، ورونالدينو بديل أورنو. ثمّ يوشك بويول أن يدخل في عراك بالأيدي مع روبن. يحاول موتا وأدميلسون تهدئة الأجواء. يتجادل جون تيري مع الحكم النرويجي تيري هوغ، بينما يهمس

رونـي بشيء في أذن هذا الأخير. ثـمّ تأتي البطاقة الحمراء، فيحتج ديل أورنو، ويصفّق موتا، ويعترض ماكيليلي.

تُستأنَف المباراة من جديد، في حين يحاول مورينيو إعادة ترتيب أوراقه؛ فيسحب جو كـول، ويُقحِم الظهير الأيمن جيريمـي، ويُغيِّر موقع فيريرا، بحيث يتمكّـن مـن مراقبة ميسي. ولكـن، لا شيء يتغيّر؛ فلا العنـف ولا الضرب الذي تعرّضـن له اللاعب الشاب أثَّر في عزيمتـه وحماسه، فيستمرّ في السيطرة على اللقـاء؛ لا يهـدأ، ولا يلقي بالًا لحنق لاعبـي البلوز، ويستمر فـي أدائه الملحمي المنفـرد. ثمّ نراه يُقوّي دعائم الجهة اليمنى من الملعب، صانِعًا فرصًا خطيرة لزميليه ديكو ورونالدينو، لكنّهما يفشلان في استغلالها.

يعانـي ليـو عزلة شديدة، ويفشل فـي إحداث تأثير ملموس دون دعم من رفاقـه. في غضون ذلك، نرى تشيلسي (المنقوص العدد) يلتزم بالخطة التي رسمهـا مدرِّبه بحذافيرهـا: «أريد التعـادل السلبي وحسـب». لديهم الآن عذر مناسـب للتمترس والتموضع في منطقتهـم الخلفية وتحيُّـن الفرصة للهجوم. تشيلسـي يسيطر على المبـاراة، ولا ينتظر كثيرًا قبـل أن يُترجِم تلك السيطرة لمصلحتـه. يتقدّم الفريق الإنجليزي في الدقيقة الثامنة والخمسين بعد الدعم الـذي حصل عليه بدخول دروغبا فـي الشوط الثاني. موتا يحوِّل الكرة خطأً في مرمـاه عند محاولتـه إبعاد الضربة الحـرّة التي نفَّذها لامبـارد. على البارسا قلب الطاولة الآن. ومـرّة أُخرى يظهر ميسي باذلًا أقصى جهده، ومُحمِّسًا بقية أفراد الفريق، ومُتجاهِلًا صافرات الاستهجان التي تطلقها الجماهير كلّما لمس الكرة. يتجاوز الدفاع بسرعة، ويُهيِّئ تمريرات رائعة، لكن لا أحد في الاستقبال. يركن تسديدة خفيفة من على حافة منطقة الجزاء، لكنّها تلمس القائم الأيسر للحارس وتخرج. يقف مصعوقًا، ثمّ يرتسم على مُحيّاه تعبير مليء بالسخرية،

كأنّــه يسأل نفسه: ماذا عليَّ أن أفعل أكثر مــن ذلك؟ إنّه الأكثر عزيمة، وأخيرًا يستمد الفريق بعضًا منها، فيساندونه.

يقلب تيــري الموازين لمصلحة البارسا في الدقيقــة السبعين حين يُحوِّل الركلــة الحرّة التــي نفَّذها رونالدينو فــي شباك بيتر تشيك، ويعــادل النتيجة. بعدهــا يبــدأ البارســا بلعب كرة قدم حقيقيــة، وصنع فرص. يظهــر ميسي من جديد، يُمرِّر تمريرة ذهبية للارسون الذي دخل محلّ موتا. بعدها بثلاث دقائق، يرتمــي تيري على الأرجنتينــي داخل منطقة الجزاء؛ لمنعه مــن السيطرة على الكــرة. هل هنالك ركلة جزاء؟ الحكم لا يُعلِن عــن شيء. وفي الدقيقة التاسعة والسبعين، يُحوِّل إيتو برأسه تمريرة من ماركيز إلى داخل الشباك. لقد نجحوا.

كانــت تلــك أول هزيمة يتعرّض لهــا فريق جوزيه مورينيو علــى أرضه من أصــل (49) مبــاراة (38 فوزًا، و11 تعادلًا). لكنّه لا يتقبّــل ذلك على نحوٍ جيد؛ فيلقــي باللوم علــى الحكم وليو، قائلًا: «هل أنا ممتعض من طرد ديل أورنو؟ هل شاهدتــم المباراة؟ أنا أخالــف أصحاب القرار الرأي، اكتــب ذلك إن شئت... لكــن، ماذا عســانــا نفعل؟ نطالبهم بالتراجع عن البطاقــة الحمراء التي تلقّاها ديل أورنــو؟ أو إيقاف ميسي بتهمة التمثيل؟ لم يُغيِّر شيئًا من النتيجة... فلنكن صريحينَ، لقد قــام ميسي بالتمثيل. كاتالونيا بلاد تعج بالثقافة، وأنتم تعرفون ذلك. وقد تردّدت على المسارح كثيرًا، ولمست مستوى الأداء المتميِّز لديهم في التمثيل. لقد تعلَّم ميسي من الأفضل...».

وفي المقابــل، قال إيتو: «من الواضح أنّ كلّ مَن يدّعي أنّ ميسي كان يُمثِّل لم يشاهــد ما حدث فعلًا». ويُصِرّ ريكارد على ذلك قائلًا: «لقد كانوا يضربونه مــن كلّ حدب وصــوب». أمّا ميسي فقــال ببساطة: «أعاني جرحًــا على مستوى الركبــة، وآخــر في الفخذ، وآخر فــي قدمي. وأعاني كدمات فــي مختلف أنحاء جسمي، لكنّني لا أشعر بالألم؛ لأنّنا فزنا. لقد كانت حقًّا مباراة خارقة».

يتفق الآخرون على احترام المجهود الذي بذله، بَدءًا بزملائه الذين يعانقونه وهو يَهِمّ بمغادرة الملعب، وانتهاءً بأنصار النادي الذين جاؤوا إلى لندن، وأخذوا يرددون اسمه. ثمّ تنهال عليه الأوصاف في اليوم المقبل كالمطر؛ فتارة يتحدث أنصاره عن «التفاني»، وتارة عن «العبقري»، وأُخرى عن «اللاعب الماهر»، و«كنز البارسا»، و«ولادة نجم عظيم»، و«الأفضل»، و«الأشجع»، و«الأفضل في المباراة». يقارَن أداء ميسي – بالنظر إلى سنّه وهدوء أعصابه- بأداء بيليه في بطولة كأس العالَم عام 1958م التي أقيمت في السويد، وبأداء مارادونا في بطولة كأس العالَم للشباب عام 1979م، وبأداء كرويف في المباراة التي خاضها فريقه أمام فريق بنفيكا عام 1969م، وبجورج بست. لقد كان يتلقّى المديح من كلّ مكان، وكأنّه اجتاز امتحان الرجولة بسهولة وتفوّق، وهو أمر استمتع به الفريق بالمعية.

أُقيمت مباراة الإياب بكامب نو في السابع من شهر آذار. وفيها تمكّن ميسي من انتزاع الكرة من روبن في الدقيقة الثالثة والعشرين، لينطلق بعدها، لكنّه يضع يده على ركبته اليسرى فجأة، ثمّ يقع على الأرض. قال لاحقًا: «كنت قد أحسست بألم بعد الاصطدام بوليام غالاس، لكنّني قرّرت إكمال الهجوم. وبعد ثوانٍ معدودة أدركت أنّني لا أستطيع ذلك».

لم يتعرّض ليو، وقتئذٍ، لأيّ خشونة في التعامل أو ضرب من الخصم، لكنّه كان مُلقى على أرضية الملعب. إنّه متجهِّم من شدّة الألم، يداه تثبتان شعره من الخلف، وتغطيان وجهه؛ كي لا يرى أحد نظرة الخوف التي اعترته. يُطبِق الصمت على الجمهور. ثمّ يناظِر زملاؤه بعضهم بعضًا بحزن. وفي نهاية المطاف، يغادر أرض الملعب منفعلاً، ويحضنه ريكارد في موقف يزخر بالمشاعر الجيّاشة. إنّها لحظة مؤثِّرة في لاعب ينال تصفيق تسعين ألف مشجع في كامب نو؛ لا نظير شفقة، بل لأنّه مهندس الانتصار الذي تحقَّق في ستامفورد بريدج.

هنـاك تمـزُّق بمقـدار أربعـة سنتيمتـرات في الجـزء العلوي مـن عضلة العرقـوب اليسرى. يقول أطباء النادي: إنّ عملية الشفاء ستستغرق مدّة تتراوح مـن أربعة إلى ستة أسابيع. لكنّ الحـظ يجانِب ميسي؛ فعندما حان وقت عودته إلـى الملاعب، ظهرت مشـكلات جديدة في الموضع نفسه، وهـو لايزال يحسّ بألـم. كان مـن المفترض أن يلعب أمام فياريال، لكنّه لم يتمكّن من ذلك، وكذا أمـام ميلان في نصف نهائي دوري الأبطال، لكنّه لن يكون موجودًا آنذاك. وقد طـال الأمر ليصل إلى تسعة وسبعين يومًا من دون لعب، وهو الآن يشاهِد نهائي دوري الأبطال من على المدرّجات.

كان هنالك حديث عن إمكانية لعبه مدّة قصيرة في تلك المناسبة المهمة التي جمعت البارسا بنادي آرسنال على ملعب فرنسا بباريس، ربّما لبضع دقائق فـي آخر المباراة. ولكن، على الرغم مـن أنّه كان قد تعافى من إصابته بصورة كبيـرة، إلّا أنّ ريكارد لا يخاطـر بالزج به. يفوز زملاؤه فـي المباراة، ويرفعون الكأس للمـرة الثانية في تاريخ النـادي. يشعر ليو بالحـزن والوحدة، ولا ينزل للحصول على ميداليته.

obeikandi.com